﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الكهف: 11]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد الدُّعاء والضَّراعة التَّفضُّلُ بحسن الإجابة

بعد أن لجؤوا إلى الكهف وفقَ الأخذِ بالأسباب، ولجؤوا إلى الله تعالى بحسن الضَّراعة والاستمداد؛ أَتْبَعَ النَّظم الكريم ذلك بأنَّ الله تعالى أجاب دعاءهم، وأنزلَ عليهم رحمته، فكان "الإيواءُ إلى الكهف فرارًا مِن أذى المشركين، ولهم في ذلك الوقت القوَّةُ والسُّلطان، والعذاب مسلَّطٌ على رقاب المؤمنين، وخصوصًا القلَّةَ الشابَّة منهم، ولكنَّ النجاةَ قد وفَّرها الله تعالى لهم، فأبعدهم عن الأحياء المشركين، ولتتم لهم الطهارةُ التامَّة، وتتم بهم الحُجَّة الكاملة، وهو صنيع الله تعالى، فقال: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَضَرَبْنَا﴾: (ضرب) أصلُ الضَّرْبِ: إيقاعُ شيءٍ على شيء، وضَرَبَ الخيمةَ بضربِ أوتادها بالمطرقة، وتشبيهًا بالخيمة قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ [آل عمران: 112]، أي: التحفتهم الذِّلَّة التحافَ الخيمةِ بمن ضُرِبَتْ عليه، وعلى هذا: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عمران: 112][2]، وضَرَبَ الوتدَ يَضْرِبُهُ ضَرْبًا: دَقَّهُ حَتَّى رَسَب في الأَرض، ووتِدٌ ضَريبٌ: مَضْروبٌ، وضَرَبَ الدِّرْهمَ يَضْرِبُه ضَرْبًا: طَبَعَهُ[3]، ومعنى الضَّرب على الآذان في الآية إلقاء النَّوم عليهم، ويُعبَّر عن هذا ونحوه بالضَّرب؛ تبيينًا لقوَّة سدِّ الآذان

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4497.
(2) الرّاغب، المفردات: (ضرب).
(3) ابن منظور، اللسان: (ضرب).

وشدَّةِ اللصوق في الأمر المتكلَّم فيه، ومنه ضربُ الذِّلَّة والمسكنة، والجزية[1]، أي: "سددنا آذانَهم بالنَّوم الغالب عن سماع الأصوات، أي: ضرَبْنا على آذانِهم الحجابَ"[2].

2) ﴿عَدَدًا﴾: (عَدَّ) أصلٌ يدلُّ على العَدِّ الَّذي هو الإحصاءُ، فالعَدُّ: إحصاءُ الشَّيءِ، تقولُ: عَدَدْتُ الشَّيءَ أَعُدُّهُ عَدًّا، فَأَنا عادٌّ، والشَّيْءُ مَعْدودٌ، والعَديدُ: الكَثْرَةُ[3]، والعَدَدُ: مِقْدارُ ما يُعَدُّ ومَبْلغُه، والجَمعُ أَعداد[4]، وقوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾، فَذِكْرُهُ للعَدَدِ تنبيهٌ على كثرتها[5]، أي: ذوات عددٍ للدَّلالة على الكثرة[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخْبِرُ النَّظمُ الجليلُ عنِ اللهِ تعالى أنَّه بعد أن أوى هؤلاء الفتية إلى الكهف، وتضرّعوا إلى المولى الجليل بذلك الدُّعاء البليغ، أنامهم اللّه تعالى نومًا ثقيلًا بأن ضرب على آذانهم داخل الكهف حجابًا ثقيلًا يمنعهم مِنَ السَّماع والتَّأثُّر بالأصوات، فصاروا لا يسمعون شيئًا يوقظهم، فَبَقوا نائمين سِنين متطاولةً ذاتَ عددٍ كثير، بيَّنها النَّظمُ الجليلُ لاحقًا في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ [الكهف: 25][7].

من معالم رحمةِ الله إلقاءُ النَّوم عليهم حتّى ينتهي سببُ خوفهم

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفاء في قوله: ﴿فَضَرَبْنَا﴾:

عطفَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ

من رحمة الله تعالى بالمضطرِّ إجابتُهُ على الفور

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 500.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 17.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عدّ).
(4) ابن منظور، اللسان: (عدد).
(5) الرّاغب، المفردات: (عدّ).
(6) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 17.
(7) طنطاوي، الوسيط: 8/ 477.

فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا﴾ على الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾ بالفاء؛ لما فيها من دلالة على التَّعقيب، فهم أووا إلى الكهف، فضَربَ الله على آذانِهم بلا مُهلة مُعتبرة[1]، والسببيَّة فإنَّ النَّوم من نتائج الرَّحمة التي طلبوها، فاللهُ تعالى استجابَ دُعاءَهم ومِن جُملة استجابته أن أنامهم[2]، وفي العطف بالفاء دلالة على سُرعة إجابة دُعائهم مِنَ الله تعالى، ويجوز أن تكونَ مُتفرِّعةً بالفاء على الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ﴾، فيدلُّ العطفُ بها على أنَّ الله تعالى قد عجَّل لهم على الفور حصولَ ما قصدوه ممّا لم يكن في حسبانهم[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالماضي، وإسناده إلى (نا):

سرعةُ الإجابة حاصلةٌ منجزة، حدثت مرَّة واحدة

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالفعل الماضي عنِ الضَّرب على آذانهم في قوله تعالى: ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا﴾؛ للدَّلالة على سرعة الاستجابة، ولأنَّ المرادَ سردُ أحداث القصَّة من غير تصوير ولا دلالة على التَّجديد؛ لأنَّ الضرْبَ وقع مرَّةً واحدة لم يتكرَّر، وليدلَّ على قوة المباشرة واللُّصوق واللُّزوم، ومنه قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ [آل عمران: 112]، وضرب الجزية، وضرب البعث[4]؛ فلذا لم يعبِّرْ عن ذلك بالفعل المضارع، وأسندَ فعلَ الضَّرب إلى ضمير التَّعظيم تعظيمًا لهذا الحدث؛ إذ إنَّه خارقٌ للعادة، ولا يفعلُهُ إلّا الإلهُ العظيم.

بلاغةُ الكنايةِ في الضَّربِ على الآذانِ:

سدَّت عنهم أسبابَ الإيقاظ، وهيَّئت لهم أسبابَ النَّوم غيرِ المعتاد

كنَّى النَّظمُ الجليل بالضَّرب على الآذان في قوله تعالى: ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا﴾ عنِ النَّوم، وإنَّما يُعبَّر بالضَّرب

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4497.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 17.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 268.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 144.

عن إلقاء النَّوم عليهم، وعن غيره "لتبيُّنِ قوَّة المباشرة وشدَّة اللُّصوق في الأمر المتكلَّم فيه والإلزام، ومنه ضرب الذِّلَّة والمسكنة، ومنه ضرب الجزية"[1]، فالضَّربُ في الآية يعني سدَّ الآذان بحجابٍ حتّى لا يصل صوتٌ يُنبِّههم مِن رُقادهم، ويوقظهم مِن نومِهم، فهو كنايةٌ عن سدِّ الآذان، وعن منعِ السمع، وعنِ التصرُّف[2].

المُستَثقِلُ النَّومَ لا يسمعُ حين يُصاحُ به

ويجوز أنْ يكون الضربُ "كنايةً عن الإنامة الثَّقيلة: لأنَّ المستثقِلَ في نومه يُصاحُ به، فلا يسمعُ[3]، وحملُه على تعطيلها، كما في قولهم: ضرَبَ الأميرُ على يدِ الرعيَّةِ، أي: منعهم من التصرُّف.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ الضربِ:

الإنامةُ المستثقلةُ ضربٌ بالحجاب على الآذان

وفي قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ استعارةٌ تمثيليَّةٌ بديعة للإنامةِ المستثقلةِ التي لا يكاد يُسمع معها، أي: أَنَمناهم على طريقة التمثيل المبنيِّ على تشبيه الإنامةِ الثقيلةِ المانعةِ عن وصول الأصواتِ إلى الآذان بضرب الحجابِ عليها[4]، أو "شُبِّه إلقاءُ النوم بضرب الحجاب، واستُعير اسم المُشبَّه به للمُشبَّه، واشتُقَّ مِنَ الضرب: ﴿فَضَرَبْنَا﴾ بمعنى (أنمنا)، استعارة تصريحية تبعيَّة، أي: أنمناهم إنامةً لا يُنتَبَهُ منها بالصياح[5]، أو على الاستعارة المكنية بتشبيه الإنامةِ الثَّقيلة بضربِ الحجابِ على الآذان[6].

سرُّ تخصيص الآذان بالضربِ:

الآذانُ طريقُ اليقظة بوصفها منفذَ الصِماخ لاستقبال الصُّراخ

وإنَّما خُصَّت الآذان دون العيون مع أنَّ النَّوم يتعلَّق بها؛ لأنَّ المراد المبالغةُ في النَّوم، فإنَّ النّائم في الأكثر يتنبَّه بسبب نُفوذ الصُّراخ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 500.
(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 271، والماوردي، النكت والعيون: 3/ 288، والغزنوي، باهر البرهان: 2/ 850، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4497.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 9/ 416.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 144، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 206.
(5) الشهاب، عناية القاضي: 6/ 77، والصاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 1093، والقاسمي، محاسن التأويل: 7/ 8.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 202.

في منفذ الصِّماخ"[1]، فتخصيصُ الآذان بالذِّكر مع اشتراك سائرِ المشاعرِ، والحواس لها في الحَجْبِ عنِ الشُّعور عند النَّوم؛ لكونها الأحوجَ إلى الحَجْب عادة؛ إذ هي الطريقةُ للتَّيقُّظ غالبًا لا سيما عند انفرادِ النّائم واعتزالِه عن الخلق[2]، فهي "الجارحةُ التي منها عَظُمَ فسادُ النَّوم، وقلَّما ينقطع نومُ نائمٍ إلّا من جهة أُذُنِه، ولا يستحكم نومٌ إلّا مع تعطُّلِ السَّمع"[3].

فائدةُ جمعِ ﴿ءَاذَانِهِمۡ﴾ وإضافتها:

جاء النَّظمُ الجليلُ بلفظِ الآذان جمعًا في قوله تعالى: ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ ذلك الضَّرب وقع في آذانهم جميعًا، فكلُّ أذنٍ من آذانهم وقع فيها ضرب على السَّمع، ولم يقل: (فضربنا عليهم في الكهف) فذكر الآذان تأكيدًا؛ لكونهم إنَّما ناموا بأمر الله تعالى بحجبهم عنِ السَّمع.

النِّعمةُ بصرفِهم عن ذلك الزَّمان شاملةٌ لكلِّ أحدٍ منهم

نكتةُ تكرارِ قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡكَهۡفِ﴾:

كرَّرَ النَّظمُ الجليلُ شبه الجملة ﴿فِي ٱلۡكَهۡفِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا﴾؛ لأنَّه الكهف المعهود[4]، وفي تكرارِه "إشارة إلى أنَّ في الكهف ذاتِه يصعبُ عليهم فيه الإحساسُ بما عند الأحياءِ مِن عذاب وإيلام، وقد استمرَّ ذلك أمدًا طويلًا، ليس يومًا ولا شهرًا، ولا سنة، بل سنين عدة"[5]، تأكيدًا لكونه مكان الإيواء واللُّبث؛ لأنَّ ذلك ممّا تستغربه النُّفوس لشدَّة غرابته، وفيه تأكيدٌ لكونه معجزةً.

جعلَ الكهفَ مأوى آيةٍ من آياتِ الجليلِ المعجزةِ

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 9/ 416.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 206.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 500.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 19.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4497.

إيثارُ التَّعبيرِ بتنكير لفظ السِّنين:

تطاولتِ السّنينُ حتّى تفلَّت حِسابُها وجُهِلَ مقدارُها

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظ السِّنين نكرةً في قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾؛ لأنَّ مدَّة لَبثِهم كانت مجهولةً، فعبَّر بها للدَّلالة على واقع الحال[1]، وفي التَّنكير دلالةٌ على التَّكثير، فلمّا كانت مدَّة لَبثِهم طويلةً مجهولةَ القدْرِ؛ عبَّرَ عن ذلك بالتَّنكير إشارةً إلى كثرة السّنين وكونها ممّا لا يُقطع بالعلم به.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿عَدَدًا﴾:

لَبِثوا سنين عديدةً لا معدودةً تحقيقًا وعدًّا

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظ ﴿عَدَدًا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾؛ لأنَّه لمّا ذكر السِّنين ربَّما يُظَنُّ أنَّ ذكرها إنَّما كان للمبالغة؛ لأنَّه نومٌ مخالف للعادة؛ حقَّق الأمر بأن ذكر بعده لفظَ العدد[2]، وإنَّما عبَّر به دون (معدودة)؛ لأنَّ العددَ يدلُّ على الكثرة، كقوله تعالى: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الجن: 28]، وأصحابُ الكهف لَبِثوا زمانًا طويلًا: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ [الكهف: 25]، وأمّا المعدودة؛ فهي للقلَّة، كقوله جلَّ شأنُه: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف: 20]، وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: 80][3]، فيستفاد من وصف السِّنين بالعدد أنَّها سنين كثيرةٌ متطاولة، فضلًا عن توكيد كثرتها؛ لأنَّ الشَّيء إذا قلَّ؛ فُهِمَ مِقْدارُهُ، ومِقْدارُ عدده، فلم يحتَجْ إلى أن يُعَدَّ، فإذا كثُرَ؛ احتاج إلى أن يُعدَّ[4]؛ كما يجوز أن يكون التَّنكير فيها دالًّا على التَّقليل، وعليه يكون وصفُ السِّنين بذلك "إمّا للتَّكثير، وهو الأنسبُ بإظهار كمالِ القدرةِ، أو للتَّقليل وهو الأليقُ بمقام إنكارِ كون القصةِ عجبًا من بين سائر الآياتِ العجيبة، فإنَّ مدَّة لَبْثِهم كبعض يومٍ عنده ﷻ"[5].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 19.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 19.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 81.

(4) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 271، والقنّوجي، فتح البيان: 8/ 17.

(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 207.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والعشرون،
سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والعشرون، سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 29 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-26-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 29 : المجلد التاسع والعشرون، سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-26-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6484549 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»